الدرس الحادي عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله ، صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمَّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتابه الكبائر :

بابٌ ذكرُ مرضِ القلبِ وموته

وقول الله تعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] ، **وقوله:** ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠- ٦١] .

****

قال رحمه الله تعالى : «**بابٌ ذكرُ مرضِ القلبِ وموته**» مرض القلب ؛ القلب – عافانا الله وإيَّاكم- يُصاب بنوعيْن من المرض: مرض يُقال له «مرض الشُّبُهات» ، والآخر يُقال له «مرض الشَّهوات» .

- «مرض الشُّبهات» يتعلَّق بالنَّواحي العلميَّة ، و«مرض الشَّهوات» يتعلَّق بالنَّواحي العمليَّة.
- «مرض الشُّبهات» فسادٌ في العلم ، و«مرض الشَّهوات» فسادٌ في العمل.
- ومن أمثلةِ «مرض الشُّبهات»: مرض النِّفاق ، وفيه هاتان الآيتان اللَّتان ساقهما المصنِّف رحمه الله. و«مرض الشَّهوات»: منه قول الله عزَّ وجلّ: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] أي: مرض الشَّهوة.

وكلٌّ منهما له محرِّكات، والشَّيطان طمعه في الإنسان أن يُمرض قلبه بأيّ النَّوعيْن من هذيْن المرضيْن: مرض الشُّبهات أو الشَّهوات. وإذا وجد عند الإنسان تساهلاً في الدِّين أدخله في مرضِ الشَّهوات، وإن كان عنده تشدُّدًا في الدِّين أدخله في مرضِ الشُّبُهات، ولا يبالي عدوُّ الله بأيّ النَّوعيْن من المرض ظفِر.

والواجب على العبد أن يحذر أشدَّ الحذر من مرضِ القلب، والقلب يمرض ثمّ يسوء به الحال ويشتدّ به الأمر فيموت، كما قال رحمه الله «بابٌ ذكر مرض القلب وموته» ، فيموت القلب بسبب ما تراكم عليه من الشُّبهات، أو ما تراكم عليه من الشَّهوات . ولا ينجو عند الله سبحانه وتعالى إلاّ القلب السَّليم ؛ أي: السَّليم من مرضِ الشَّهوات، والسَّليم من مرضِ الشُّبهات.

قال : **وقول الله عز وجل : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾**؛ السِّياق في المنافقين ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: مرض النِّفاق ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] .

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ﴾ انظر هذه الآية مع قوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] ؛ وهذا فيه: أنَّ العبد إذا أخذ بنفسه في سبيل الهداية أعانه الله وسدَّده ، وإذا أخذ في سبيل المرض والزَّيْغ زاده الله زيْغًا ومرضًا، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصّفّ: ٥] ، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ .

قال: **وقوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾** أي: مرض النِّفاق، وهو مرض الشُّبُهات ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا(٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠- ٦١] .

فالشاهد من الآيتين: أنَّ القلب يمرض، والمرض الّذي فيه قد يزداد إلى أن يصل إلى مرحلة الموت.

قال رحمه الله :

(٦٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إنّ المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستعتب صُقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى فيه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

وقال الأعمش رحمه الله: «أرانا مجاهد بيده قال: كانوا يرون أن القلب في مثل هذا –يعني الكف– فإذا أذنب العبد ذنبًا ضم منه، وقال بأصبعه الخِنْصر هكذا، فإذا أذنب ضم وقال بأصبعه الأخرى هكذا، فإذا أذنب ضم وقال بإصبعه الأخرى هكذا، حتى ضم أصابعه كلَّها، قال: ثم يُطبع عليه بطابع، وكانوا يرون أن ذلك هو الران». رواه ابن جرير عن أبي كُرَيب عن وكيع عنه بنحوه. وعن مجاهد رحمه الله أيضًا أنه قال: «الران أيسر من الطبع ، والطبع أيسر من الإقفال».

****

قال: وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((**إنَّ المؤمن إذا أذنب ذنبًا نُكِتَت نكتة سوداء في قلبه**)) ؛ والنُّكتة : هي الجزء اليسير من نقطةٍ أو نحوها، يكون على الثَّوب أو على الورق

أو على أيِّ شيء، فيظهر متميِّزًا بـ–مثلًا– سواده، أو خضاره، أو زراقه. يُقال له «نكتة». النكتة هي: الشيء اليسير من أيِّ لونٍ كان ، الشيء اليسير من أيِّ لونٍ كان يسمَّى نكتة، يُقال: هذه نكتة على هذه الورقة، أو نكتة على الثوب. أي: قطعة من اللَّون صغيرة يسيرة جدًّا.

ف((**إذا أذنب العبد ذنبًا نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء**)) أي: قطعة صغيرة من السَّواد تنطبع على قلبه.

((**فإن تاب ونزع واستعتب**)) إن تاب إلى الله ونزع واستعتب؛ طلب من الله عزّ وجلَّ العفو والصَّفح، وندم على ذنبه ((**صُقِلَ قلبه**)) أي: تزول تلك النُّكتة، ويكون قلبه صافيًا سليمًا.

((**وإن زاد زادت**)) إن زاد من الذُّنوب زادت هذه النُّكت السَّوداء ((**حتى تعلو القلب**)) أي: تغطّي القلب.

((**فذلك الرَّان الّذي قَالَ الله فيه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**)) أي: غطَّى على قلوبهم ما يكسبونه من ذنوبٍ وآثام.

قال الأعمش: «**أرانا مجاهد بيده. قال: كانوا يروْن أنَّ القلب في مثل هذا –يعني الكفّ– فإذا أذنب العبد ذنبًا ضمَّ منه وقال بإصبعه الخنصر هكذا**» فيُلاحظ الآن أنَّ جزْءًا غطَّى الكفّ، بدون الذُّنوب يكون هكذا أي: صافيًا لا شيءَ يغطِّيه ، فإذا أذنب ذنبًا قال بإصبعه هكذا. «**فإذا أذنب ذنبًا ضمَ وقال بإصبعه الآخر هكذا، فإذا أذنب ذنبًا ضمَّ وقال بإصبعِه الآخر هكذا ،حتى ضمَّ بأصابعه الأخرى هكذا**» فيصبح القلب –الّذي هو مثل الكفّ– مُغطًّى بهذه الأشياء وهذه التَّراكمات من الذُّنوب الَّتي تأتي واحدة تلو الأخرى.

«**وكانوا يروْن أنَّ ذلك هو الرَّان**» في الآية الكريمة ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾ [المطفّفين: ١٤] أي: غطَّى على قلوبهم. والتَّغطية على القلب الَّتي هي الرَّان لا تأتي دُفعةً واحدة، وإنَّما تأتي تدريجًا، نكتة ثمّ نكتة ثمّ نكتة.. إلى أن تغطّي القلب، فيكون حاله كما وصف الله سبحانه وتعالى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

قال: وعن مجاهدٍ أيضًا قال: «**الرّان أيسر من الطَّبع، والطَّبع أيسر من الإقفال**» ؛ وهذه مراحل يُصاب بها القلب على حسب هذا التَّرتيب الّذي ذكره، يكون أوَّلاً: الرّان ، ثمّ يُطْبَع على القلب، ثمّ يُصاب بالإقفال بحيث لا يصل إليه ولا منفذ فيه لدخول الحقِّ والهدى.

قال رحمه الله :

٦٤ – وعن أبي سعيد رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى لله عليه وسلم: ((القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوطٌ بغلافه، وقلب منكوس، وقلب مُصفَح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نور، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف الحق ثم أنكر. وأما القلب المصفح فقلبٌ فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها

الماء الطيّب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم، فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه)).

****

قال: وعن أبي سعيدٍ رضي الله عنه مرفوعًا قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((**القلوب أربعة**)) القلوب أي في أحوالها ؛ من حيث الطَّاعة وعدمها، من حيث سلامة القلب ومرضه، من حيث حياة القلب وموته((**القلوب أربعة**)).

((**قلبٌ أجرد**)) ومعنى أجرد أي: متجرّدٍ لله سبحانه وتعالى ليس فيه إلاّ طلبُ رضا الله والعمل بما يُرضيه سبحانه وتعالى، متجرّدٌ ممَّا سوى الله تبارك وتعالى، ليس فيه إلاّ طلب رضا الله والعمل على نيْل رضاه عزّ وجلّ.

((**قلبٌ أجرد فيه مثل السِّراج يُزهِر**)) أي يضيء، فهو قلبٌ متجرّد؛ أي: مخلص دينه لله صادق مع الله سبحانه وتعالى، مُقبِل على الله عزّ وجلّ ، مُجَرِّدًا التَّوحيد لله، ومجرّدًا المتابعة للرَّسول الكريم عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وفي مصنَّفات أهل العلم في الاعتقاد: كتاب «تجريد التَّوحيد» ، فمَن جرَّد التَّوحيد لله عزّ وجلّ ينطبق عليه هذا المعنى «قلبٌ أجرد» أي: متجرّدٌ صاحبه لله سبحانه وتعالى.

((**وقلبٌ أغلف مربوطٌ بغلافه**)) أغلف: أي عليه غشاوة، عليه غطاء يغطِّيه من كلِّ جانب، ويحيط به من كلِّ جانب.

((**وقلبٌ منكوس**)) أي: منقلب ليس سويًّا ، قلبٌ مُنَكَّس.

((**وقلبٌ مُصْفَح**))؛ مُصْفَح: أي له صفحتان جانب خير وجانب شرّ. له وجهان: وجهٌ فيه شيء من الخير، ووجهٌ فيه شر. ثمّ بيَّن ذلك.

قال: ((**فأمَّا القلب الأجرد فقلب المؤمن، فسراجه فيه نور**)) ؛ فقلب المؤمن قلب أجرد أي: متجرّد لله عزّ وجلّ، مخلِص صادق مع الله، ومضيء بنور الإيمان؛ لأنَّ الإيمان نور، والوحي نور يضيء لصاحبه، ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] . فالقلب يحيى بالإيمان ويستضيء أيضًا بنور الإيمان ونور الوحي، والوحي نور كما قال الله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ [الشُّورى:٥٢] ، فالوحي نور يضيء لصاحبه.

قال: ((**وأمَّا القلب الأغلف: فقلب الكافر**)) ؛ الأغلف هو: الّذي غطَّت عليه الظُّلمات ؛ ظلمات الشِّرك وظلمات الباطل وظلمات الذُّنوب، فغطَّت عليه فأصبحت على القلب مثل الغلاف المحيط به من كلِّ جانب.

((**وأمَّا القلب المنكوس فقلب المنافق الخالِص؛ عرف الحقّ ثمّ أنكر**)) عرف الحقّ واستبان له الهدى وظهر، وأنكر ذلك، وأصبح يُظهِر إيمانًا ويُبطن كفرًا محضًا.

((**وأمَّا القلب المُصْفَح**)) أي: الّذي له صفحتان، له وجهان، وجهٌ خير ووجهٌ شرّ.

((**فقلبٌ فيه إيمان ونفاق، ومثلُ الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيّب**)) فتنمو، يُنْتَفَع بها.

((**ومثل النِّفاق فيه كمثلِ القرحة يمِدُّها القيْح والدَّم**)) وهذا مثل عجيب في وصف أحوال القلوب الأربعة .

((**فأيُّ المادَّتيْن غلبت على الأخرى غلبت عليه**)) هذا الّذي يتنازعه أمران: خيرٌ وشرّ ؛ الخير له أشياء تمدُّه، والشَّرّ له أيضًا أشياء تمدُّه، ومثل الخير كمثلِ البقلة يمِدُّها الماء الطيب ، ومثل النِّفاق كمثل القرحة يمِدُّها القيْح والدَّم. فإذا وُفِّق بالماء الطَّيِّب الَّذي هو غيث الوحي والهدى فإنَّ هذا يصقَّل قلبه بإذن الله تعالى ويصفو ويكون قلبًا سليمًا. وإذا كانت غلبت عليه المادَّة الأخرى مادة النِّفاق الَّتي هي كالقرحة تُغذَّى بالقيْح والدَّم فهو لِما غلب عليه منهما.

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ ذكر الرضاء بالمعصية

روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «هلكتَ إن لم يعرف قلبك المعروف وينكر المنكر».

****

قال: «**بابٌ ذكر الرِّضا بالمعصية**» ؛ الرضا بالمعصية يعني : حتى وإن لم يفعلها يكون راضيًا بها، هذا هلاك والعياذ بالله ، ولهذا أقلّ مراتب إنكار المنكر الَّتي ليس وراءها من الإيمان حبَّةَ خردل : كراهيَّة المنكر في القلب، أما أن يكون الإنسان راضيًا بالمنكر فهذا هلاك والعياذ بالله حتى وإن لم يفعل . قد قال عليه الصَّلاة والسَّلام : ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ؛ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ)) ، إذا كان القلب لا يُنكر المنكر، وإنَّما يرضاه ويحبُّه ويُقِرُّهُ هذا هلاك والعياذ بالله. مثل ما قال ابن مسعود: «هلكتَ إن لم يعرف قلبك المعروف، وينكر المنكر». الشاهد من كلامه: قوله «وينكر المنكر»؛ إذا كان القلب لا ينكر المنكر بل يرضاه ويقرُّهُ فهذا هلاكٌ لصاحبه. قال: «هلَكْتَ»: أي أنّ هذا هلاكٌ لصاحبه ، وفي الحديث الآخر قال عليه الصَّلاةُ والسَّلام: ((فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ)) .

قال رحمه الله:

٦٥ – ولمسلم عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنَّته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلُف من بعدهم خلوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) .

****

قال: ولمسلمٍ عنه –أي ابن مسعود رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((**ما من نبيٍّ بعثه الله في أُمَّةٍ قبلي إلاّ كان له من أُمَّته حوارِيُّونَ وأصحاب**)) ؛ له من أمَّته صفوة وخلاصة يلازمونه، يتَّبعون نهجه ، يسيرون وَفْقَ سنَّته، وهم صفوةُ النَّاس ؛ وصفهم بصفتين تأمَّلهما جيِّدًا:

قال: ((**يأخذون بسنَّته، ويقتدون بأمره**)) ؛ وهذا فيه تنبيه على صلاحهم في الجانبيْن: جانب العلم، وجانب العمل، ((يأخذون بسنَّته، ويقتدون بأمره)) ، وعرفنا أنَّ مرض القلب مرضان: مرض علمي وهو مرض الشبهات ، ومرض عملي وهو مرض الشهوات ؛ وهذا فيه سلامتهم من هذا كلِّه وصلاحهم في العلم والعمل.

أمَّا صلاحهم في العلم ففي قوله: ((**يأخذون بسنَّته**)) ؛ علومهم ما هو مصدرها؟ من أين يتلقَّوْنها؟ هل من مصادر علومهم الآراء؟ هل من مصادر علومهم مثلا القصص والحكايات؟ هل من مصادر علومهم الذَّوق؟ ... إلخ؟ لا، لهم مصدر ؛ السُّنَّة. كلّ شيء يقوله من أمر الدِّين يُسنده إلى الرَّسول ويتلقَّاه عن الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ، ((يأخذون بسنَّته)) فعلومهم متلقاة من السُّنَّة من الرَّسول . هذا صلاح العلم، فالعلم كلُّه متلقى من الرَّسول.

وصلاح العمل في قوله: ((**ويقتدون بأمره**)) أي: أفعالهم كلُّها اقتداء بأمره ، لا يفعلون شيئًا إلاّ وهم به مُقْتَدون وعلى نهجه سائرون.

يقول: ((**يأخذون بسنَّته، ويقتدون بأمره**))؛ «يأخذون بسنَّته» هذا صلاح العلم. «ويقتدون بأمره» هذا صلاح العمل.

((**ثمَّ إنَّها تخلُفُ من بعدهم**)) أي: من بعد هؤلاء الصَّفوة ((**خُلُوف، يقولونَ ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمَرون**)) وهؤلاء فيهم الفساد من الجهتين: جهة العلم، وجهة العمل. «يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يُؤمَرون» فعندهم فسادٌ في العلم، وعندهم فسادٌ في العمل.

قال: ((**فمَن جاهدهم**)) لأنَّ هذا منكر عظيم ((**فمَن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبَّةُ خردل**)) ؛ هذا موضع الشاهد للتَّرجمة قوله: ((وليس وراء ذلك من الإيمان حبَّةُ خردل)) ؛ أي: الّذي لا ينكر المنكر بقلبه بل يرضى المعصية فهذا ليس

عنده أدنى الدَّرجات من درجات الإيمان في إنكار المنكر وهي الإنكار بالقلب ، إذا كان قد رضي بالمعصية وأقرَّ بها.

قال رحمه الله :

٦٦ – وله عن أم سلمة رضي الله عنها مرفوعًا: ((إنه يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كرِه فقد برئ، ومن أنكر فقد سلِم، ولكن من رضي وتابع)) أي من كره بقلبه وأنكر بقلبه. وفي رواية غير الصحيح بعد «وتابع» : ((فأولئك هم الهالكون)) .

****

قال: وله –أي: مسلم رحمه الله– عن أمِّ سلمة رضي الله عنها مرفوعًا: ((**إنَّه يُسْتَعْمَلُ عليكم أُمَرَاء، فتعرفون وتُنكرون**)) أي: من الأمور الَّتي يباشرونها ويعملونها أشياء تعرفونها ؛ أي: تعرفونها من هدي الإسلام ومن دين الله تبارك وتعالى، «وتنكرون» أي: تنكرون أشياء من الأمور الَّتي يفعلونها، أشياء منكرة ليست من دين الله سبحانه وتعالى ، فعندهم أشياء من دين الله، وعندهم أشياء منكرة ليست من دين الله عزّ وجلّ.

قال: ((**فمَن كرِه فقد برئ**)) برئت ذمَّته بالكراهة ؛ لأنَّه أتى بالقدر الأدنى أو القدر الأقلّ الّذي تبرأ به الذِّمَّة ويسْلم به من العقوبة، «كره» أي: كره هذه المنكرات الَّتي عندهم بقلبه. فهذه الكراهيَّة تحصل بها براءة الذِّمَّة، ((فقد برئ)) أي: برئت ذمَّته. لكن إن لم يكره بقلبه ورضي أعمالهم تلك فقد هلك. وهذا موضع الشّاهد: ((فمَن كره فقد بَرِئ))

((**ومَن أنكر فقد سَلِم**)) إذا كان من أهل القدرة على الإنكار والمناصحة والوصول إلى الوُلاة ومخاطبتهم بتلك المنكرات، وتحذيرهم من خطورتها وسوء مغبَّتِها.

((**ولكن**)) أي: الخطورة والعقوبة والذَّنب ((**ولكن مَن رضي وتابع**)) يعني: رضي بالمنكر وتابع أولئك عليه. «رضي» بالمنكر أي: في قلبه، «وتابع» أي: تابعهم بفعل ذلك المنكر .

((**أي: من كره بقلبه وأنكر بقلبه**))؛ هذا تفسير لقوله: ((فمَن كره فقد برئ، ومَن أنكر فقد سلِم))؛ مَن كره بقلبه وأنكر بقلبه، قال: ((فمَن كره فقد برئ)) أي كره بقلبه، ((ومَن أنكر بقلبه فقد سلِم))، ومن وفقه الله عزّ وجلّ وعنده قدرة على المناصحة فهذه درجة أعلى من هاتين الدرجتين ، أما هاتان الدرجتان الكراهة يحصل بها براءة الذمة، والإنكار بالقلب يحصل به السلامة من ذلك المنكر، ((ولكن من رضي وتابع)).

وقوله: «**مَن كره**»؛ الكراهة بالقلب يتحقَّق بها عدم الرِّضا، والإنكار يتحقَّق به عدم المتابعة. وبهذيْن تكون براءة الذِّمَّة والسَّلامة.

قال: «**وفي رواية غير الصَّحيح بعد "وتابع" : فَأولئك هم الهالِكون**» أي: مَن رضي وتابع فإنَّه هالك.

قال رحمه الله تعالى :

باب ذكر تمني المعصية والحرص عليها

٦٧ – في الصحيحين عن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)) ، **قالوا: «يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟» قال: ((إنه كان حريصًا على قتل صاحبه))**.

****

قال: «**بابٌ ذكر تمنّي المعصية والحرص عليها**» أي: انعقد في قلبه حرص جازم وعزم مؤكَّد على فعل المعصية، لكنَّه لم يمنعه من فعلها إلاّ العجز وعدم القدرة ، وإلاّ هو عازم تمامًا على أن يفعل وقلبه حريص تمامًا على أن يفعل، لكن الذي حال بينه وبين الفعل عدم القدرة والعجز عن الفعل؛ فهذا تكون عقوبته عقوبة الفاعل ، لأنَّ الحريص على السّيِئات الجازم بإرادته على فعلها إذا لم يمنعه إلاّ مجرَّد العجز فهذا يُعاقب على ذلك عقوبة الفاعل.

ومن القواعد الَّتي قرَّرها أهل العلم في هذا الباب وذكرها الإمام ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «أنَّ العزم إذا اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدِّمات الفعل نُزِّلَ صاحبه في الثَّواب والعقاب منزلة الفاعل التَّام» . هذه قاعدة مفيدة جدًّا ؛ «أنَّ العزم إذا اقترن به ما يمكن من الفعل» ما معنى «اقترن به ما يمكن من الفعل»؟ يعني ما حصل له الفعل كاملاً، لكن أمكنه شيء قليل من الفعل، «اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدِّمات الفعل» لم يفعل لكن جاء ببعض المقدِّمات ولم يتمكَّن «نُزِّلَ صاحبه في الثواب» إن كان هذا العمل طاعة، «والعقاب» إن كان ذلك العمل معصية «منزلة الفاعل التام» يُنزَّل منزلة الفاعل التام بذاك الحرص الشديد الّذي قام في قلبه أنَّه يفعل هذا الأمر، ولم يمنعه من فعله إلاّ العجز وعدم القدرة.

وذكر رحمه الله على ذلك دليليْن من السُّنَّة ؛ الأول : في الصحيحين عن أبي بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**)) ؛ إذا التقى القاتل والمقتول بسيفيْهما ، هذا الالتقاء بالسيفين يعني أنَّ كلَّ واحدٍ منهما يريد أن يقتل الآخر، لكن أحدهما سبق فقتل الآخر . إذًا الآخر الّذي هو المقتول لولا أنَّ هذا سبقه إلى القتل كان يريد أن يسبق هو إلى القتل لكن سُبق فلم يتمكَّن من القتل ، فيقول: ((إذا التقى المسلمان بسيفيْهما فالقاتل والمقتول في النَّار)) .

«**قالوا: يا رسول اللَّه هذا القاتل، فما بال المقتول؟**» ؛ هذا القاتل واضح قتل، فما بال المقتول أيضًا يكون في النَّار؟ قال: ((**إنَّه كان حريصًا على قتل صاحبه**)) ؛ فهذا يُؤخَذ منه : أنَّ الحرص التَّام والعزم الّذي لا يردّ عنه إلاّ عدم القدرة على فعل الذَّنب يُنَزَّل منزلة الفاعل التَّام . ولهذا قال عنهما: كلاهما في النَّار القاتل والمقتول؛ القاتل لأنَّه قتَل، والمقتول لأنَّه كان حريصًا على القتل وعزَم على ذلك عزمًا أكيدًا لم يمنعه أو يحُل بينه إلاّ أنَّه بادر صاحبه إلى قتله.

ورد في حديث عن النَّبيّ عليه الصَّلاةُ والسَّلام أنَّه قال: ((ومَن همَّ بسيِّئةٍ فلم يعملها كُتِبَت له حسنة))؛ هل يُقال في ذاك الأوَّل القاتل- قال: لم يعمل السيِّئة- هل هذا الحديث ينطبق عليه؟ وهل هذا الحديث يُعارض ذاك الحديث؟ يُقال: إنَّه في حديثٍ آخر للنَّبيّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ((مَنْ هَمَّ بِسَيِّئةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَة)) فهل ينطبق عليه؟ هذا شيء وهذا شيء آخر ؛ هذا همَّ بسيِّئة ومنعه منها خوف اللَّه، خشية اللَّه، الخوف من عقوبة اللَّه، تقوى اللَّه عزّ وجلّ ؛ هذا تُكْتَب له حسنة ، يُكْتَب له تركه للسيِّئة حسنة ويدخل في جملة طاعاته وعباداته. فرق بين مَن يترك السيِّئة خوفًا من اللَّه، وبين مَن يترك السَّيِّئة لعجزه وعدم قدرته عليها، ولو تمكَّن لفعلها لحرصه التَّام وعزمه الأكيد على فعلها. فرقٌ بين مَن تركها لعجزه، وبين مَن تركها لخوفه من ربِّه سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله :

٦٨ – وعن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه مرفوعًا أنه قال: ((مثل هذه الأمة مثل أربعة رجال: رجل آتاه الله مالًا وعلما فهو يعمل في ماله بعلمه، ورجلٌ آتاه الله علمًا ولم يؤته مالا فقال: لو كان لي مال مثل مال فلان لعمِلت فيه مثل عمله، فهما في الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالًا ولم يؤته علما فهو يتخبط في ماله لا يدرى ما له مما عليه ، ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علمًا فقال: لو كان لي مثل مال فلان لعملتُ فيه مثل ما عمل فلان فهما في الوزر سواء)) صححه الترمذي .

****

قال: وعن أبي كبشةَ الأنماري رضي اللَّه عنه مرفوعًا : ((**مثلُ هذه الأُمَّة كمثلِ أربعةِ رجال: رجلٌ آتاه اللَّه مالاً وعلمًا، فهو يعمل في ماله بعلمه**)) ؛ لأنَّ العلم يضيء له الطريق ، وإذا دخل الإنسان في المال بدون علم دخل في أمور محرَّمة وأشياء تسخط اللَّه عزّ وجلّ ، ولهذا كان نبيُّنا عليه الصَّلاةُ والسَّلام كلَّ يومٍ إذا أصبح يقول في دعائه: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وِرِزْقًا طَيِّبًا» ، بدأ بالعلم النَّافع قبل الرِّزق الطَّيِّب؛ لماذا؟ لأنَّه لا يمكن أن يميِّزَ الإنسان بين رزقٍ طيِّبٍ وخبيث إلاّ بالعلم ؛ فإذا كان عند المرء علمٌ نافع فإنَّه يميز به بين الخبيث والطيِّب. وهذا الرَّجل آتاه اللَّه مالاً وعلمًا فهو يعمل في ماله بعلمه، «بعمله» أي: الّذي آتاه اللَّه إيَّاه.

((ورجل آتاه اللَّه علمًا ولم يؤته مالاً، فقال: لو كان لي مالٌ مثلُ مالِ فلان لعملتُ فيه مثل عمله)) هذا عزم وحرص شديد قام في قلب هذا الرَّجل ، والعزم والحرص على الخير إذا قام في القلب ولم يمنع منه إلاّ عدم القدرة – مثل هذا الآن لم يمنعه من أن يفعل مثل ذاك الرَّجل إلاّ عدم وجود المال، وإلاّ لو وُجِدَ المال لفعل مثله- يُنَزَّل منزلةَ الفاعل ، ولهذا قال: ((**فهما في الأجر سواء**)) ؛ سبحان اللَّه! انظر إلى سعة فضل اللَّه عزّ وجلّ ، رجل ثري عنده أموال كثيرة جدًا وعنده علم، ويعمل بماله بعلمه، يزكّي ، ويتصدَّق، ويبني المساجد، ويطبع المصاحف، ويبني دور الأيتام، ويحفر الآبار، ويعمل أعمال كثيرة من أعمال الخير . ورجل آخر فقير ليس عنده شيء، لكن عنده علم، وقال وصدق مع ربِّه في عزمه أنَّه لو كان عنده من المال مثل ما عند ذلك الرَّجل لفعل مثله، فهما في الأجر

سواء، يجد يوم القيامة أجر مثل تلك الأجور، حفر آبار، طباعة مصاحف، بناء مساجد.. إلى غير ذلك، يجد هذه الأُجور، وأيضًا لا يأتي بمال يوم القيامة يُحاسَب عليه . الفقراء يسبقون الأغنياء، لكنَّه يحصِّل هذه الأُجور أُجور الأموال بهذا الحرص الذي قام في قلبه، والله عزّ وجلّ فضله عظيم، فضله واسع، ومع ذلك أكثر الفقراء يبخل على نفسه بهذا الحرص الّذي يحصِّل فيه هذه الأُجور العظيمة الجزيلة الواسعة في أمورٍ لم يعملها ، لكن قام في قلبه حرصٌ شديدٌ عليها فأعطاه الله عزَّ وجلّ على هذا الحرص مثل أجر الفاعل.

((**ورجلٌ آتاه اللَّهُ مالاً ولم يُؤتِه علمًا**)) ؛ عنده أموال كثيرة وليس عنده علم ، وهذا خطر جدًّا على الإنسان، إذا كان عنده أموال كثيرة وليس عنده علم هذا من أخطر ما يكون ، ((**فهو يتخبَّط في ماله لا يدري ما له ممَّا عليه**))؛ ولهذا يمشي في المال خبط عشواء ؛ تضييع حقوق، ويعتدي على أشخاص، وينتهب أموال، ويُرابي في المال... وإلى غير ذلك من الوجوه المحرَّمة ، يتخبَّط في ماله لا يدري ما له ممَّا عليه.

((**ورجلٌ لم يؤته اللَّه مالاً ولا علمًا** –وهذا موضع الشاهد للترجمة– **فقال: لو كان لي مثل مال فلان، لعملتُ فيه مثل عمله**)) –نسأل الله العافية– يرى ذلك الذي معه الأموال يستخدم الأموال في الخمور وفي الفواحش في الرَّذائل في المحرَّمات في كذا ويخبط في المال هذا الخبط، فيقول هذا الفقير: لو كان لي مال مثله لفعلت مثله ؛ لأنَّه لا مال عنده ولا علم عنده . قال: ((**فهما في الوِزرِ سواء**)) لماذا في الوِزر سواء؟ لأنَّ الحريص الّذي عنده العزم الأكيد الذي لم يمنعه من الفعل إلا العجز وعدم القدرة يُنَزَّل منزلة الفاعل التَّام ؛ لأنَّه أتى بالنِّية وبمقدوره التَّام فنُزِّلَ منزلة الفاعل التَّام.

إذًا هذا الحديث الّذي هو حديث أبي كبشة يمكن أن تُستَخْلَص منه القاعدة الَّتي أشار إليها أهل العلم وهي : «أنَّ العزم إذا اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدِّمات الفعل نُزِّل صاحبه في الثَّواب والعقاب منزلة الفاعل التَّام».

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.